

الأحد 21 من ديسمبر سنة 2008م - 23 من ذو الحجة سنة 1429هـ - العدد 806

من مساكن العمال إلي الوعي بتاريخ الحركة العمالية



Artist: Henry Pilleau

أ.د. أحمد عبدالله زايد : عميد كلية الآداب - جامعة القاهرة

يؤكد علماء اجتماع المعرفة ان المنتجات الفكرية والاختيارات البحثية والمعرفية - رغم استقلالها النسبي - لها علاقة بالظروف التي يخبرها الشخص، والمواقف التي أثرت في وجدانه وتكوينه الفكري، وأحسب ان هذا الحكم يصدق علي مؤرخنا الكبير رعوف عباس عبر اهتمامه بالعمال والحركة العمالية ، وفي ضوء ذلك فان لنا أن نفترض أن القدر لم يكن وحده هو الذي دفع المؤرخ الكبير رعوف عباس الي هذا الاهتمام المبكر بدراسة الحركة العمالية، فقد ارتبط الاهتمام بالعمال وتاريخهم بظروف طفولته التي عاشها بينهم، وعمل معهم في باكورة حياته العملية.

ثمة صدي تردد في وجدان صاحبنا لهذه الحياة التي خبرها في طفولته، وهو يتحرك داخل عالم الحياة العمالية بدءا من البيت الصغير الذي ولد فيه في مساكن عمال السكة الحديد في بورسعيد، الي هذه الحجرة الصغيرة التي يعيش فيها مع جدته في قرية «هرميس» التي يسكنها عمال مهاجرون، نزحوا إلي القاهرة طلبا للرزق وفرارا من الفقر إلي البؤس والشقاء، ومرورا بكل الأماكن التي عمل بها والده.

لقد تشبعت روح الفتى بقسوة هذه الحياة وتعاستها، وأمتد بصره ليشاهد حوله كل ما في هذه الحياة من شظف وظلف. فالبيوت ضيقة متلاصقة، والحجرات صغيرة، والأحياء بانسة، والسكان جميعا - ملاكا ومستأجرين - شركاء في السكن والفقر، وهم يتضامنون ويتكاتفون من أجل مواجهة مشقة الحياة، تلك هي الصورة التي انطبعت في ذهن الفتى عن عالم الحياة الذي تعيشه الطبقة العاملة بخاصة وفقراء الحضر بعامه، ولاشك ان هذه الصورة ظلت تلازمه محفورة في عقله ووجدانه، وقد تكون حياة العمال وهمومهم قد شغلت الفتى علي نحو أكبر عندما شب عن الطوق وتخرج من الجامعة، ووجد أن ثورة يوليو تضع العمال في بؤرة الضوء، وتتوسع في الصناعة، وتمنح العمال مكاسب للمشاركة في الإدارة والأرباح، وربما يكون هذا الإدراك لأهمية الطبقة العاملة في المرحلة الجديدة للثورة هو الذي جعله يتوقف بدراسته للحركة العمالية عند عام 2591 مؤكدا بأن هذا العام شهد بداية مرحلة جديدة من تاريخ الحركة العمالية.

ومع التسليم بتأثير هذا الحدث البنائي الكبير - أعني قيام الثورة واهتمامها المفرط بالطبقة العاملة - إلا أن التأثير الأكبر ربما يكون قد جاء من العمل مع العمال بعد التخرج من الجامعة مباشرة، فلقد كان سعيدا بعمله كمراجعا للحسابات في الشركة المالية والصناعية المصرية، ونراه يحكي لنا انه كان يشعر بالونس» وهو يجلس معهم ليتناول طعام الغداء، ويشاركهم همومهم، ونضالهم السياسي داخل الشركة من أجل نيل حقوقهم، لقد سمحت له

هذه التجربة يتعمق أكثر في أمور ربما غمضت عليه من قبل.. ولاشك انها ساهمت في صقل عقله وانضاج وعيه بشأن نضالات الطبقة العاملة وحقوقها المهذورة. فعندما ينضج الوعي يحسن الاختيار ويتم الاجابة علي السؤال الصعب: في صف من نقف؟ وتتلاشي هنا الألوان الضبابية ويبدو الاختيار بين الالوان الأكثر نضاعة ووضوحا. ولقد اختيار صاحبنا علي نحو واضح وصريح وكان اختياره لموضوع رسالته للماجستير اختيارا لموقف لا مجرد اختيار لموضوع رسالة. فكتب بعد أن فرغ من سرد علاقته بالعمال الذين كان يعمل معهم ويناضل من أجلهم يقول «حسنت التجربة التي عاشها بين عمال كفر الزيات اختياره فقد لاحظ ان اولئك العمال الذين نجحوا في اسقاط اللجنة النقابية وراهم خبرة نضالية لم تأت من فراغ» ومن ثم كان عمله الرائد حول تاريخ الحركة العمالية في مصر.

وعندما نطالع كتاب الحركة العمالية في مصر (نشر في طبعته الاولى عام 8691 عن دار الكتاب العربي للطباعة والنشر) لاجد بحثا علميا رصينا فحسب، ولا موضوعا جديدا للبحث التاريخي فحسب، بل نجد في ثنايا النص هذا الموقف المنحاز إلي العمال، وهذا الوعي الصريح الذي تشكل من الطفولة الي الشباب. حقيقة ان الدراسة تعد دراسة رائدة في تاريخ مصر الاجتماعي، وفي تقديم نوع جديد من الكتابة التاريخية التي لم تكن الدوائر الاكاديمية والثقافية قد ألفتها بعد، وأعني تلك الكتابة التي تتجاوز السرد التفصيلي للأحداث وتتابعها، إلي الاطار البنائي والتاريخي الاوسع، فتوضع هذه الأحداث في سياق تحليل لمستويات مختلفة اقتصادية واجتماعية وجيوبولتيكية، كل هذا وغيره يمكن أن يقال عن هذه الدراسة الرائدة، ولكن رغم هذا العمق الاكاديمي والمهني الا اننا نصادف - كما ألمحنا من قبل - موقفا صريحا يتشيع لقضايا العمال، ويبرز مشكلاتهم وهمومهم.

ولقد تجلي ذلك بطرق عديدة ونكتفي بسبب ضيق المساحة بالإشارة الي موقفين، الأول يرتبط بتحليل الكاتب للدور الذي لعبه العمال في بدء الصناعة في مصر، وهو هنا لا يفوت فرصة في توضيح حجم العسف والقسوة والظلم الذي وقع علي العمال في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الصناعة المصرية التي حلت بالتدريج محل نظام الطوائف القديم. نقرأ في الصفحات التي خصصها مؤرخنا الكبير لهذه القضية كيف ان الوالي كان يلجأ إلي تجنيد العمال من الزراع والمهين الحقيرة للعمل في المصانع الجديدة قسرا، وكيف ان سياسة القسر هذه كانت تؤدي إلي حمل العمال - الذين تدنت أجورهم الي قرش أو قرشين أو ثلاثة علي اقصي تقدير - علي الهرب من المصانع، الامر الذي دفع الوالي إلي أن يطلب من كل عامل كفيلا يمكن الرجوع إليه اذا هرب. أما الموقف الثاني فيتصل باختياره للنظرية المفسرة لنشوء النقابات العمالية وتطبيقها علي نشأة الحركة النقابية في مصر. ثمة نظريات عديدة لنشوء الحركة النقابية يرتبط بدور القيادة، بالقدرة التنظيمية للنخبة العمالية، أو بنمو الوعي العمالي وادراك مصالح العمال، أو العمل في مواجهة ظروف وهموم ومشاكل الحياة اليومية. لم يسرد مؤرخنا هذه النظريات، ولكنه أتجه مباشرة إلي النظرية الأخيرة التي تفسر نشأة النقابات في ضوء ظروف الفقر ومحاولة ايجاد حلول لمشكلات الحياة اليومية للعمال، اتضحت هذه النظرية - التي أشار إليها صراحة - في تحليله لازدهار الحركة النقابية في مصر بعد ثورة 9191، وذهب في هذا الصدد إلي القول بان أحوال العمال قد تدهورت في أعقاب الحرب سبب تسريح اعداد كبيرة منهم وتفاقت مشكلة البطالة، وفاق المعروض المطلوب في سوق العمل، فانخفضت الأجور، وارتفعت تكاليف المعيشة، الأمر الذي دفع العمال الي قبول العمل في اشد شروطه اجحافا ومن هذا الظرف التاريخي الذي وضع العمال في مأزق اجتماعي حقيقي، بدأت نقابات العمال في الازدهار فاعادت بعض النقابات القديمة نشاطها وظهرت اخري جديدة، وهكذا بدأ تدفق العمل النقابي عبر الظروف الصعبة التي يمر بها العمال، والمنعطف التاريخي الذي يتعرضون له.

وهكذا عبر الكتاب لم يضع الكاتب فرصة للتذكير بأحوال العمال وهمومهم، تذكير لاشك ان يتشابك مع ذاكرة عميقة بعيدة من أيام الطفولة والصبا، وذاكرة قريبة من ايام الشباب المبكر.

ذاكرة تضع الاساس لوعي تاريخي مستنير، يعتبر الكتابة التاريخية فرصة لتعميق الوعي بطبيعة القوي الفاعلة في حركة التاريخ، والقوي المستفيدة منه، وتلك التي تعيش علي هامشه.

<http://akhbarelyom.org.eg:81/adab/articleDetail.php?x=adab2008&y=806&z=1977&m=4>